٢ – الالتزام :

ذلك هو الواجب الثانى من واجبات الجنود المسلمين ، والالتزام الذى نقصده هو ما يعرف اليوم فى الجيوش الحديثة باسم (الضبط والربط) بمعنى أن الجنود يجب أن يكونوا وقافين عند حدود الأوامر والنواهى ، فلا يعصون ولا يتمردون ، ولا يخالفون أمرا تصدره القيادة .

والالتزام بهذا المعنى لم يكن معروفا لدى العرب ، بل لم يتعودوه فى حياتهم الخاصة والعامة ، فكانوا يتصرفون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورغباتهم ، فلما جاء الإسلام ضبط سلوكهم ، وصنع منهم رجالا قادرين على كبح أهوائهم ، والتحكم فى رغباتهم ، يعرفون كيف يلتزمون متى يطلب منهم ذلك .

نعم ، لقد ضبط الإسلام سلوك الجنود ، وعلمهم كيف يلتزمون بأوامر القيادة ، فلم يعد تصرفهم عشوائيا صادرا عن مجرد الهوى والرغبة ، بل أصبح كل شىء فى حياتهم تحت تصرف القيادة ، ووفق أوامرها ، لا يعمل أحد عملا حتى يستأذن ، ولا يتحرك حركة إلا بعد موافقتها ، وقد أثنى الله – عز وجل – عليهم بقوله – جل شأنه – : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم ﴾(١) .

إن المؤمن حقا لا يمكن أن يصدر إليه أمر من قيادته ثم يتردد فى تنفيذه ، فالتردد فى تنفيذ أمر الله سمة من أبرز سمات المنافقين ، والإبطاء فى فعل شىء

---

(١) سورة النور : الآية ٦٢ .

ترغب القيادة فيه من أهم صفاتهم ، فبهذا وصفهم القرآن الكريم ، فقال – جل من قائل – : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[1] .

ذلك لأن المؤمن إذا قال صدق ، وإذا وعد أوفى ، وإذا ائتمن أدى أما المنافق فإنه إذا قال كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويدعون الإيمان وما هم بمؤمنين .

قال – تعالى – : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ﴾[2] .

أما المؤمنون فإنهم يصدعون بأمر الله دون تردد ، ويقفون عند النهى ولا يتزحزحون ، ولهذا وصفهم القرآن الكريم بذلك حيث يقول – جل شأنه – : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾[3] .

والآية الكريمة تشير بعد ذلك إلى أن مجرد أن يعطى المؤمن نفسه حق الاختيار بعد صدور الأمر معصية يترتب عليها ضلال مبين ، ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقط ضل ضلالا مبينا ﴾[3] .

ويقول – سبحانه – : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾[4] .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤٢ – ١٤٣ .
(٢) سورة النور : الآية ٤٧ – ٥٠ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .
(٤) سورة النور : الآية ٥١ ، ٥٢ .

ويوضح – تبارك وتعالى – أن الفوز والسعادة فى طاعة القيادة ، وتنفيذ أوامرها ، فيقول فى الآية التى تلى الآية السابقة : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(١) .

إن الالتزام والوقوف عند حد الأوامر والنواهى التى تصدرها القيادة الإسلامية ممثلة فى إمام المسلمين وخليفتهم ، أو فيمن ينوب عنه من أهم صفات الجندية فى الإسلام ، ومن أوجب واجباتهم ، وإن جيشا مهما كانت قوته لا يتحقق فيه الضبط والربط (الالتزام) لهو جيش مهزوم لا محالة ، وإن القيادة مهما كانت رشيدة حكيمة ، حازمة صارمة ، لا يمكن أن تحقق انتصارا وهى تقود جيشا غير ملتزم .

ذلك لأن الجنود مالم يقفوا عند الأوامر فينفذونها ، وعند النواهى فيجتنبونها تتسيب الأمور ، وينفلت الوضع ، وعندئذ تصدر القيادة تعليماتها فلا تجد من يرعاها ويتقيد بها ، وهذا هو الانحلال المؤدى إلى الضعف والوهن ، وتلك هى الفوضى التى لا ينتصر معها جيش ولا يسود معها نظام .

وفى بداية تكوين الدولة الإسلامية لم يكن المسلمون قد تمرسوا على هذا النوع من الالتزام ، وكانت تغلب عليهم حياة البداوة التى لا تعرف الانضباط ولهذا حدث ما حدث فى غزوة أحد حين لم يلتزموا بأوامر القيادة ، وخالفوا الأمر ظانين أن المعركة قد انتهت ، ولكنهم مع هذا الظن مخالفين حيث كانت الأوامر صريحة فى عدم مغادرة المكان .

فلما وقعت المخالفة كان لابد أن يلقن المسلمون درسا يستقر فى رءوسهم ، ليكون عبرة لهم ولغيرهم حتى لا تتكرر المأساة فدارت الدائرة عليهم بعد أن كانت لهم ، وقتل منهم سبعون ، وشج رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته ، ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنتيه .

كان لابد أن يلقن المخالفون هذا الدرس الأليم ، ولو كانت المرة الأولى ، لأن التهاون فى مثل تلك الحال يجرىء على تكرارها ، وأما الأخذ بالأحوط والحزم ولو كان مؤلما فإنه يعلم الحذر ، ويجعل الإنسان لا يقع فى الخطأ مرة أخرى .

---

(١) سورة النور : الآية ٥٢

إن المخالفة شؤم فى حد ذاتها ، فكيف إذا كانت فى الأوامر العسكرية ؟ بل كيف إذا كانت فى أثناء المعركة ؟؟

كان لابد من الدرس ، وكان هذا الدرس مع ما فيه من المرارة والآلام تأديبا للمسلمين ، وتحذيرا للمخالفين ، ولم يكن ما نزل برسول الله ﷺ إلا إمعانا فى التأديب ، فقد كان ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، فإذا رآه المسلمون على تلك الحال ، وعلموا أن ذلك بسبب مخالفتهم ازداد شعورهم بخطئهم ، وأحسوا بالمرارة تملأ نفوسهم ؛ حينئذ يتجسم خطر المخالفة ، وتبرز عواقبها الوخيمة أمام أعينهم فلا يعودون إليها أبداً .

ويأتى بعد ذلك التهديد المخيف والوعيد المفزع للذين يخالفون أمره ﷺ قال – تعالى – : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾(١) .

ولقد أثمر هذا الدرس العظيم مع قسوته على النفوس وشدته على المؤمنين حتى إنه فى اليوم التالى للمعركة عندما نادى منادى الرسول بالاستعداد لتعقب المشركين لم يتخلف أحد رغم الجراح التى لم تندمل والدماء التى لم تجف ، فكان الرجل منهم مع شدة آلامه وتقرح جراحه يتحامل على أخيه ليواصل السير مع الجيش ولم يعتذر منهم أحد .

أ – الالتزام العسكرى :

وعى المسلمون هذا الدرس جيدا ، وفهموا كل أبعاده ومراميه ، فالتزموا به ، ولم يفرطوا فى شىء بعد ذلك قل أو كثر ، سواء كان ذلك فى عهد الرسول ﷺ أم فى عهد الخلفاء الراشدين من بعده .

فكان رسول الله ﷺ يوجه الجيوش إلى المناطق النائية من أطراف الجزيرة ، فلا يتخلف أحد ، ويسيرون فى عزم الأسود ، وصلابة الجبال ، لم ترهبهم قوة العدو ، ولم تفزعهم مشقة السفر ، وجه الرسول ﷺ جيشا

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

إلى مؤتة ، قوامه ثلاثة آلاف جندى ، وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس »(١) .

ويصدع الجيش بالأمر من غير تردد ، فيقطع مئات الأميال ليواجه جيش الروم فى عرينه ، وهو أحد أكبر جيشين معروفين فى ذلك التاريخ ، ولم يتخلف رجل واحد من ثلاثة الآلاف جندى ، وتسند القيادة إلى هؤلاء النفر الكرام فلم يعتذر منهم أحد رغم تقديرهم لكل أبعاد الموقف ونتائجه ، وكان أحد جنود ذلك الجيش خالد بن الوليد - وهو من هو فى الخبرة والعبقرية - ولم يغضب أو يتمرد حيث لم تسند إليه القيادة بل التزم وأطاع .

وصار الجيش على بركة الله ، يحدوه الأمل فى نصر الله ، حتى وصل إلى ميدان المعركة ، وهناك واجه جيش الروم فى مائتى ألف مقاتل من الروم وحلفائهم من العرب المتنصرين - لخم وجذام والقين وبهراء وبلىٍّ -(٢) وأخذ المسلمون يفكرون ، ماذا يفعلون ؟ وكيف يواجهون ذلك الجيش اللجب ؟؟

واجتمع القواد وأولو الرأى يتشاورون ، فقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ورأى عبد الله بن رواحة - أحد القواد الثلاثة - ما آل إليه أمر المسلمين فخاف أن يدب فى نفوسهم الوهن إن هم استمروا على ذلك ، فيضعفوا عن مواجهة عدوهم فقام فى الناس يذكرهم بوعد الله فقال : « يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد وقوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما الظهور وإما الشهادة » .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، ومضوا لقتال عدوهم(٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٧٣/ م٢ .
(٢) ابن هشام : ٣٧٥/ م٢ .
(٣) ابن هشام : ١٢٠٢/٣ .

تقابل الجيشان فى معركة غير متكافئة ، نعم ، غير متكافئة من كل الوجوه وليس من حيث العدد فقط ، فإن ذلك أهون الأمور وأقلها تأثيرا على جيش تعود أن ينتصر مع قلته على عدوه مهما كانت كثرته .

ونحن لو تجاوزنا التفاوت العددى الهائل بين الجيشين المتحاربين والذى بلغت نسبته ١ - ٦٧ تقريبا ، فكيف يمكننا أن نتجاوز الوضع الأمنى لهذين الجيشين ؟

إن جيش الروم يتمتع بكل إمكانات الأمن ، فهو فى بلده ، وبالقرب من مصادر إمداداته وتموينه ، وإذا أدركته الهزيمة آوى إلى ركن شديد ، وأما جيش المسلمين فهو محروم من كل ما يتمتع به جيش العدو ، فقد غادر بلدة ، وابتعد عنها أكثر من أربعمائة ميل تقريبا ، وإذا احتاج إلى المدد أو التموين لا يجد من يسعفه ، وكذلك إذا أحس ببوادر هزيمة لم يجد من يلجأ إليه .

ولا يجوز أن ننسى ونحن نتكلم عن وضع الجيشين الحالة النفسية لهما : حيث يكون أحدهما مطمئنا فى ثكنته ، آمنا فى سربه ، لم يرهقه السفر ، ولم يتحمل مشقة نقل السلاح ، والآخر يقيم فى أرض غير أرضه ، متأهب للقاء عدوه ، أرهقه السفر ، وأكدّه حمل السلاح .

إن الذى ينظر من خلال تلك الجوانب مجتمعة لابد أن يحكم بأن النتيجة الحتمية لتلك المعركة هى إبادة جيش المسلمين لأول جولة ، ولكن هل كانت النتيجة كذلك ؟

لقد كانت المعركة غير متكافئة ، وكل ما يحيط بها يدعو إلى الخوف والقلق ، ولو أن الجيش الإسلامى بحالته تلك انسحب من الميدان ، وعاد أدراجه من حيث أتى ما كان ملوما ، ولا عتب عليه أحد ، ولكان عذره مقبولا لدى المنصفين من الأصدقاء والأعداء على حد سواء .

إن الإيمان الذى ملأ قلوب هؤلاء الأشاوس ، والالتزام الذى تعلمه هذا الجيش المناضل يأبيان عليه أن يفر من العدو مهما كانت الحالة النفسية والأمنية

ومهما تفاوتت النسبة العددية ، كما يأبيان عليه أيضا أن يعود غير ظافر بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

لهذا اقتحم زيد بن حارثة جيش العدو اللجب بجيشه الصغير ، وظل يقاتل حتى شاط فى رماح القوم ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قتل ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وقاتل بها حتى قتل ولحق بصاحبيه .

هكذا استشهد القواد الثلاثة ، وكانت لديهم الفرصة للنجاة لو كانوا يطلبون النجاة ، وكانت الظروف المحيطة بهم تلح عليهم أن يطلبوا سبيلا آخر غير القتال والقتل ليعودوا إلى أهليهم سالمين ، ولكن هل كان الفرار ينجيهم من قدر الله ؟ وهل كانت العودة إلى المدينة ، تتفق مع حقيقة الالتزام الذى تعلموه ؟؟

إن قدر الله نافذ لا محالة ، والعودة بغير قتال مخالفة لما التزموا به من أوامر القيادة ، نعم ، إنهم بعودتهم بغير قتال سيضمنون النجاة من القتل فى تلك المعركة ولكن ، من الذى يضمن لهم النجاة من سخط الله وقد خالفوا أوامر قيادتهم ؟ وأين يذهبون ولازال تحذير الآية الكريمة غضا فى آذانهم وقلوبهم ؟

إن الدرس القاس الذى تعلموه يوم أحد لايزال ماثلا فى أذهانهم ، فكيف يفرون ؟

وكانت غزوة الخندق امتحانا عمليا لسلوك الجيش الإسلامى ومقياسا دقيقا لمدى انضباطه ، فقد وقعت تلك الغزوة فى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية شديدة القسوة بالغة الخطورة .

فأما الظروف السياسية فإنها كانت المعركة الأولى بعد معركة أحد التى أصيب فيها المسلمون بتلك الخسائر الفادحة مما جرأ عليهم القبائل ، وطمع فيهم عدوهم ، وقد تحالف فيها اليهود مع مشركى مكة ، ونقضت بنو قريظة العهد الذى كان بينها وبين المسلمين ، مما جعل المسلمين فى مأزق لم يمروا بمثله قط .

وأما الحالة الاقتصادية فكان المسلمون فى ضائقة شديدة فكانوا يمكثون اليومين والثلاثة بغير طعام ، حتى شد المسلمون على بطونهم الحجارة ، وشد

رسول الله ﷺ على بطنه حجرين من شدة الجوع فى وقت كانوا مكلفين فيه بعمل شاق ومضن وهو حفر الخندق الذى بلغ طوله اثنين من الكيلو مترات وعرضه خمسة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار تقريبا ، وكان لابد من حفره فى خمسة عشر يوما حتى لا يأتى العدو إلى المدينة وهم لم يتموا حفرة بعد ، فكانت تلك الظروف لا تبشر بقدرة المسلمين على مواجهة تلك المحنة .

وأما الوضع الاجتماعى فكان المنافقون فى المدينة قد أحفزهم ذلك التحالف الأثيم ، وأخذوا يتربصون بالمسلمين وهم معدودون منهم ، وراح يمنى بعضهم بعضا بهزيمة المسلمين على يد عشرة آلاف جندى من الحلفاء ، وأرجفوا بذلك بين المسلمين وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك حيث يقول الله – تعالى – : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾(١) .

ولو أضفنا إلى ذلك كله الظروف الجوية التى كان يعيشها المسلمون من شدة البرد ، وعدم تمكنهم من اتقائه ، لقدرنا قسوة هذا الامتحان ، ولو عرفنا أن المسلمين قد واجهوا كل هذه الظروف بحزم وثبات وصبر وتحمل دون أن يعتذر منهم أحد إلا من كان منافقا معلوم النفاق لاستطعنا أن نحكم على مدى التزامهم ، وقدرتهم على الضبط والربط .

وإن القرآن الكريم ليصور لنا هذا الاختبار تصويرا حسيا يهز كيان الشجعان ويزلزل أقدام الصناديد حين يقول – جل من قائل – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر و تظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾(٢) .

---

(١) سورة الأحزاب : الآيتان ١٢ ، ١٣ .
(٢) سورة الأحزاب : الآيات ٩ – ١١ .

وإنك لترى فى هذا العرض السريع لهذا الموقف الحرج صورة للمسلمين موحية بوضع لا يحسدون عليه ، فقد زاغت أبصارهم ، وبلغت القلوب منهم الحناجر ، ووصل بهم الحال أن ظنوا بأن الله لن ينصرهم ، وبذلك تم الابتلاء وزلزلوا زلزالا شديدا .

لا شك أن هذا الابتلاء تمحيص للمؤمنين ، وكشف لحال المنافقين ، فتميز بذلك الفريقان ، وظهر للناس منطقان : منطق المؤمنين الصابرين المرابطين ، ويعبر عنه القرآن الكريم فى عبارة واضحة ولهجة صادقة حين يقول : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾[1] .

ومنطق المنافقين المنهزمين ، وهو منطق منطو على خبث دفين ودس خطير وقد صور لنا القرآن حالهم فقال – تعالى – : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾[2] .

وكان بعضهم يقول لبعض : إن محمدا كان يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن أن يخرج إلى الخلاء وحده[3]

فى تلك الظروف يستعد المسلمون لحفر الخندق ، ويخرج فيهم رسول الله ﷺ فيحدد لهم موضعه ، ويقسمه بين الصحابة ليحفر كل منهم جزءا منه فجعل لكل عشرة رجال أربعين ذراعا طولا فى عشرة أذرع عرضا فى خمسة عمقا[4] .

وبدأ المسلمون يحفرون ، متغلبين على كل الصعوبات التى واجهتهم من الخوف والجوع والبرد ، وبينما تحفر جماعة سلمان الفارسى – رضى الله عنه – صاحب فكرة الخندق إذ اعترضهم صخرة عاتية تكسرت عليها المعاول ، وكادت

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٢ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ١٢ .
(٣) ابن هشام : ١٠٣٢/٣ بتصرف .   (٤) يراجع كتابنا (تأملات فى سيرة الرسول) .

تتكسر عليها هممهم ، وأيأستهم من الحفر ، ولكنها لم تيئسهم من النصر ، فاقترح بعض المشتركين فى الحفر أن يميلوا عن الصخرة قليلا ليتمكنوا من مواصلة العمل ، فقال سلمان : « لا ، لا أميل عن خط رسمه لنا رسول الله ﷺ حتى نستأذنه » .

وصعد سلمان إلى حيث يقيم رسول الله فى خيمته التى ضربت له على جبل ذباب ، وأخبره خبر الصخرة ، فنزل معه الرسول ، وتناول المعول بيده الشريفة ، وضربها ثلاث ضربات ، فخرجت منها فى كل ضربة برقه ، فسأله سلمان - رضى الله عنه - : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ » .

قال ﷺ : « أو قد رأيت يا سلمان ؟ » .

قال : « قلت : نعم » .

قال : « أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق (١) .

هكذا بلغ التزام المسلمين بالأوامر هذا الحد ، وهكذا نفذوا أوامر القيادة بكل دقة ، ولا أعرف جيشا مهما بلغ نظامه التزم جنوده بمثل تلك الدقة المتناهية .

إن أية مجموعة من البشر تكلف بمثل هذا العمل ، وتصادفها مثل تلك العقبة ، ثم يتصرف أفرادها على النحو الذى أراد بعض الصحابة أن يتصرفوا على مثله لم تكن ملومة ولا مذمومة ، ولا أحسب أحدا يخطئها فى هذا التصرف ، ولكن التربية الإسلامية الدقيقة ، وحرص المسلمين على تنفيذ أمر القيادة بمنتهى الدقة ، والدرس الذى تلقنوه يوم أحد ، وتحذير القرآن الكريم من مغبة المخالفة ، كل ذلك جعل المسلمين يلتزمون ولا يحيدون ، ولا يتصرفون حتى فى هذا الأمر اليسير الذى تقتضيه مصلحة العمل إلا بعد الحصول على إذن من القيادة الرشيدة .

---

(١) ابن هشام : ٢١٩/ م٢ .

ولا يزعم أحد أن مثل ذلك الأمر حجر على عقول الجنود ، وتقييد لآرائهم ، واحتكار للزعامة فى شخصية القائد ، فليس فى الإسلام حجر على العقول ، ولا تقييد للأفكار ، ولا احتكار للزعامة ، بل ذلك ترويض للنفوس على الالتزام وتعويد لها على الطاعة حتى يصبح الالتزام والطاعة خلقا للمسلمين .

إن الإسلام الذى أباح للجندى أن يناقش القائد لإظهار الصواب وجعل القائد ينزل على رأى الجندى متى ظهر له الصواب لا يمكن أن يحجر على العقول أو يكبل الأفكار أو يحتكر الزعامة ، وإن الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وبين الحباب بن المنذر فى غزوة بدر والذى ينتهى بأمر الرسول الجيش بأن ينزل على رأى الحباب ، وقصة مفاوضة الرسول لغطفان فى غزوة الخندق ، ونزول الرسول ﷺ على رأى السعدين – ابن معاذ وابن عبادة – وقطع المفاوضة نزولا على رغبتهما ، إن هذا وتلك ليدلان على مدى الحرية التى أعطيها الجندى وكان يمارسها ويتمتع بها فى الإسلام .

ولكن الذى ينبغى أن نفهمه هو أنه لا تناقض بين الالتزام كواجب من واجبات الجنود ، وبين حرية الرأى وممارستها على أى صعيد ، ذلك لأن الالتزام إنما يتحتم إذا تمت الخطة ، واستقر الرأى ، وواجهنا العدو ، فإذا عنَّ للجندى رأى أو كانت له مشورة فعليه أن يظهر الالتزام أولا ثم يبدى رأيه ، فإن كان صوابا وقبلته القيادة نفذته وأخذت به ، وإلا فالالتزام بأمر القيادة واجب ، وعليه أن يخضع ويلتزم .

وفى القصتين السابقتين توضيح لما ذكرت ، فإن الحباب – رضى الله عنه – قبل أن يبدى رأيه استأذن ، وسأل رسول الله ﷺ قائلا : **يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟**

قال رسول الله : **بل هو الرأى والحرب المكيدة .**

قال الحباب : **يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فننزل ، ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا**

فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون(١) .

عندئذ ينهض الرسول ﷺ ، وينزل حيث أشار الحباب لأنه الصواب الذى يجب ألا تعدل عنه القيادة الرشيدة .

ويجدر بنا هنا أن نقف وقفة غير قصيرة عند قول الحباب : أمنزلا أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

إن الحباب – رضى الله عنه – بهذه المقالة يظهر روعة الجندية فى الإسلام ويوضح أرقى درجات الطاعة والالتزام « أمنزلا أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه » إن كانت المسألة وحيا أوحى إليك فليس لأحد فيه مقال ، وعلينا السمع والطاعة ، ولن ترى منا غير الالتزام والانضباط لأن الله الذى بعثك لن يدعك فريسة لأعدائك ، بل سيختار لك ما فيه الخير والرشاد وليس للمسلم حق الاختيار بعد أن يقضى الله ورسوله أمراً .

وأما إن كانت المسألة مجرد رأى وحيلة حرب ، وتدبير مكيدة ، فحينئذ يحق لى أن أبدى رأيى ، وأشارك فى التخطيط .

يا رسول الله ، ليس هذا بمنزل ، لأننا بذلك نعطى للكفار فرصة التمتع بما يمكن أن نحرمهم منه ، ويكون سببا – بإذن الله – فى هزيمتهم ، وهو الماء فالماء يكون بين أيديهم إذا نزلنا فى هذا المكان ، فيشربون ويطبخون وتتوفر لديهم وسائل المقاومة والعناد ، والمكيدة فى الحرب تقتضى خلاف ذلك فإننا نستطيع أن نحرمهم من الماء ، ونضيق عليهم الخناق ، ونستمتع بما حرمانهم منه .

تلك لفتة رائعة من الحباب تبين سمو التربية الإسلامية وأثرها فى تكوين شخصية الجنود ، وتوضيح مدى التزامهم بالأوامر ، فإن كان النص فالسمع والطاعة ، وإن كان الرأى فالمسلم ليس بالآلة الصماء يسير بلا عقل ولا إرادة ، ولا هو بالتابع الأبله يمشى مع الماشين من غير أن يكون له اختيار فى المسيرة ، بل هو الحصيف المحنك ، يعرف كيف تدبر الأمور ، الشجاع الفطن يدلى برأيه ،

---

(١) ابن هشام ٦٥٩/٢ ، الرحيق المختوم للمبار كفورى ص ٢٣٤ .

ولا يألو جهدا فى نصح قيادته ، وقيادته ليست بالقيادة الحمقاء تستبد بالرأى ، ولا تسمع للجنود وإن كان رأيهم هو عين الصواب ، ولا هى بالقيادة البلهاء يحركها ذوو المطامع الدنيئة ويستغلها أصحاب المصالح والأهواء ، بل هى القيادة الرشيدة تقبل النقد البناء ، وتسمع لكل ذى رأى يبذل النصح ويريد التسديد .

وفى غزوة الخندق ، وقد رأى رسول الله ﷺ أن العرب قد تحالفوا مع اليهود ، وتكالبوا جميعا على المسلمين ، ورموهم عن قوس واحدة ، فأراد أن يخفف عنهم ، فبعث إلى غطفان ليفاوضهم على الرجوع عن الحصار على أن يعطيهم ثلث تمر المدينة ، وبدأت المفاوضة ، وتم الاتفاق ، ولكن الرسول أوقف التنفيذ حتى يأخذ رأى زعماء المدينة .

أحضر الرسول السعدين – ابن معاذ زعيم الأوس ، وابن عبادة زعيم الخزرج – وعرض عليهما ما دار فى المفاوضة ، واستشارهما فى هذا الصلح .

قال السعدان : « يا رسول الله آمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ »

قال رسول الله ﷺ : « بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » .

فقال سعد بن معاذ : « يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟!!

مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم » .

قال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك »(١) .

---

(١) ابن هشام : ١٠٣٣/٣ ، ١٠٣٤ .

وأوقف الرسول ما كان قد بدأ واستمر فى المعركة حتى حقق الله النصر للمسلمين .

هكذا ينبغى أن يفهم الالتزام فى الإسلام ، وهكذا يجب أن يكون . ولم يكن هذا الالتزام وبتلك الدقة على عهد رسول الله ﷺ فقط بل كان سمة مميزة للجيش الإسلامى على الدوام .

ففى عهد الخلفاء الراشدين ، وفى العهود التى تلته ، يروى لنا التاريخ ما يطول شرحه ، ويعز وجوده ، ولا يستطيع كاتب إحصاءه .

لقد واجه أبو بكر - رضى الله عنه - فى بداية عهده ردة شرسة استشرت فى أنحاء الجزيرة المختلفة ، ورغم الفزع الذى إستولى على كثير من المسلمين ، يصر الخليفة على مواجهة الموقف بكل حزم ، ويستشير عمر - رضى الله عنه - فيقول عمر : « الزم بيتك واعبد ربك فلا قبل للمسلمين بحرب العرب مجتمعين » .

فيرد الخليفة ذلك الرأى على عمر قائلا : حتى أنت يا عمر ، أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدى(١) .

ويعقد الخليفة أحد عشر لواء ، يسير بها أحد عشر جيشا ، ويوصهم الخليفة ويأمر كل قائد ألا يذهب إلى غير وجهته حتى لو انتصر ، بل عليه أن يستأذن القيادة ، وتلتزم الجيوش كلها فلا يتجه قائد إلى غير ما وجهه إليه .

ويصر الخليفة على تسيير جيش أسامة بن زيد - رضى الله عنه - رغم المعارضة الشديدة من جمهور الصحابة ضاربا بذلك المثل العملى لما يجب أن يكون عليه الجيش من الالتزام حين يقول : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ »(٢) .

---

(١) الصديق أبو بكر (هيكل) ص ١٢٢ بتصرف .
(٢) ابن كثير : ٣٠٤/٦ .

والتقى جيش أسامة بجيش الروم على حدود فلسطين ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة ، كانت الغلبة فيها للمسلمين ، فقد انتصر أسامة انتصارا يغرى بالتقدم فى بلاد الروم التى أصبحت بعد هزيمة الجيش مفتوحة أمام المسلمين .

وكذلك يكون الانتصار دائما مغريا بالتقدم والزحف وراء العدو المنهزم ولكن الجيش الإسلامى بقيادة أسامة بن زيد الشاب الحدث لم تحدثه نفسه ، بل لم يدر بخلد أحد من أمرائه أن يتعقب فلول الجيش المنهزم .

لم يكن ذلك لضعف فى الجيش فقد انتصر انتصارا قمينا بأن يغريه بمتابعة الزحف ، ولم يكن ذلك لجبن فى القيادة أو الجنود ، فالجبان لا يقطع تلك المسافة الهائلة الشاسعة ليواجه خصمه ، بل الحقيقة التى جعلت المسلمين يقفون عند هذا الحد ، ويقنعون بما حققوا من نصر ، ويعودون إلى بلادهم دون التوغل فى أرض عدوهم هى أنه لم يكن لديهم أمر بدخول بلاد الروم ومطاردة الجيش المنهزم ، بل كانت الأوامر صادرة بردع الروم وزجرهم حتى لا يطمعوا فى بلاد الإسلام وحيث تحقق ذلك فليقف الجيش المنتصر ولا يتجاوز حده التزاما بأمر القيادة .

ب – الالتزام السياسى :

من المعلوم أن السياسة جزء من الإسلام والله – عز وجل – لا يقبل منا الإسلام إلا إذا كان كاملا شاملا كما جاء به رسول الله ﷺ ، فالذين يؤمنون بالإسلام عبادة وشريعة وعقيدة ، ولا يؤمنون به قيادة وسياسة قد فرقوا دينهم ، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، والله – سبحانه – لا يقبل منا ذلك ، وقد نعى هذ الفعل على من سبقنا من أهل الكتب السماوية ، فقال –عز من قائل – : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾[1] .

فنحن نؤمن بالإسلام كمنهج للحياة ، بعث الله به نبينا محمدا بالحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم سواء السبيل ، وجعل المسلمين أئمة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

للناس يسوسونهم بالقرآن ، ويدبرون شئونهم على أساس من نظام الإسلام ، فالإسلام الذى نفهمه دين ودولة ، مصحف وسيف عبادة وقيادة ، شريعة وجهاد .

ولا يعقل أن يكون للمسلمين دولة منعزلة عن العالم ، بعيدة عن التيارات السياسية فيه ، وهى دولة ذات مبادىء ، ونظامها يحتم على أتباعه نشر الدعوة ، وتمهيد الطريق لها لتسود وتنتشر فى كل مكان فلابد من أن يكون لتلك الدولة علاقات مع جيرانها ، ومع الدول التى تحتاج إلى التعامل معها .

ونحن نتساءل هنا عن ماهية تلك العلاقات والأساس الذى ستقوم عليه ، وماذا نسمى تلك العلاقات ؟

لا شك أن هذه العلاقات ينبغى أن تكون علاقات احترام للمبادىء التى جاء بها الإسلام ، بمعنى أن تترك الحرية لهذا الدين ليأخذ مكانته فى قلوب الناس ، ويستقر فى عقولهم ، وأن تقوم هذه العلاقات على أساس من نظام الإسلام ومبادئه ، وتلك هى العلاقات السياسية التى نعنيها .

ولم يكن النظام الإسلامى مقصرا فى ذلك ، ولم يكن محتاجا لأن يستمد من غيره شيئا من تلك النظم ، لأنه جاء لإسعاد البشرية ولن تتحقق تلك السعادة إلا إذا كان للنظم الإسلامية شخصيتها المستقلة ، ولأنه جاء متمما للرسالات السابقة شاملا لكل نظم الحياة دقيقها وجليلها ، فلا بد أن تكون نظمه كاملة لا يعتورها نقص ولا يشوبها كدر .

ولقد بدأ التحرك السياسى للدولة الناشئة قويا بقدر قوة نشأتها وضرب فيه المسلمون أروع الأمثلة حنكة وجرأة ودقة ، فقد عاهد الرسول ﷺ يهود المدينة بعد دخولها بقليل ، فكانت المعاهدة دليلا قويا على مدى وعى المسلمين السياسى فى تلك الفترة القليلة من عمر الدولة الجديدة ، كما دلت على قوة إحاطة المسلمين بالسياسة التى يجب اتباعها مع أعدائهم .

ففى المعاهده أمن الرسول اليهود على أرواحهم ودينهم وأموالهم وحملهم مقابل ذلك قسطا من مصاريف الحرب التى تنشب بين المسلمين وبين أعدائهم ،

وشرط عليهم ألا يناصروا عدوه ، ولا يؤوا أحدا من أعدائه ، فإن هم وفوا بذلك فهم آمنون وإلا فلا .

وهذا الجزء من المعاهدة الطويلة يعطى إيحاءات سياسية ملموسة فإن فى تأمين الرسول ﷺ اليهود على أرواحهم وأموالهم ودينهم تصريحا واضحا بأن الأمر والنهى كان بيد المسلمين ممثلين فى قائدهم وزعيمهم محمد بن عبد الله كما أن فى اعتراف اليهود بذلك ورضاهم به دليلا على إقرار اليهود بزعامة المسلمين السياسية ، كما يدل على أن اليهود لم يكن لهم شخصية مستقلة فى داخل الدولة الإسلامية ، وإنما كانوا تابعين لحكومتها ، خاضعين لنظمها وقوانينها ، كما كان فى تحملهم قسطا من نفقات الحرب التى لم يشتركوا فيها والتى تقع بين المسلمين وأعدائهم دليل على مدى خضوعهم للدولة الناشئة إذ فى تحمل ذلك القسط إظهار لولائهم وعدم تمردهم .

وهكذا كل نصوص المعاهدة كانت فى مصلحة المسلمين مقابل أن يعيش اليهود آمنين فى المدينة إلى جوار المسلمين .

يقول الدكتور هيكل : « وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى ، كما أن سيرته وعظيم تواضعه ، وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم ، وما أورثه ذلك من قوة السلطان على أهل يثرب ، كل ذلك وصل بالأمر بينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد معاهدة هى فى اعتقادنا من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر التاريخ »(١) .

كذلك كانت معاهدة الحديبية من الوثائق التاريخية النادرة التى أثبتت بعد نظر المسلمين وحنكتهم السياسية ، رغم ما فى ظاهرها من إجحاف بالمسلمين وهضم لحقوقهم الطبيعية التى كانوا يعتقدون إنه ليس من حق أحد التدخل فيها وحرمانهم منها ، ومع ذلك فقد التزم المسلمون بالمعاهدة على ما فى ظاهرها من الإجحاف والتعسف .

---

(١) حياة محمد : ص ٢٢٤ ط ٩ .

ولست بذلك أنكر ما دار ساعتئذ من الهمس والتساءل على ألسنة بعض الصحابة ، والذى أصبح بعد لحظات أمراً علنيا على لسان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين ذهب إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وقال له : « يا أبا بكر أليس هو رسول الله ﷺ ؟ » فأجاب أبو بكر : بلى .

فقال عمر : « أولسنا بالمسلمين ؟ » .

قال أبو بكر : بلى .

فقال عمر : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » .

وهنا يفطن أبو بكر - رضى الله عنه - للمعنى العميق الذى يكمن وراء تلك الأسئلة الملحة من عمر فيقول : « يا عمر ، الزم غرزك فإنى أشهد أنه رسول الله » .

فيقول عمر : « وأنا أشهد أنه رسول الله »(١) .

ولكن تلك الإجابة من أبى بكر لم تشف صدر عمر ، بل لعله لمح فيها ما أحسه فى داخل نفسه من عدم التفسير المبرر لقبولها حيث لم يصرح أبو بكر ولو بسبب واحد يدعو إلى الموافقة على هذه الشروط .

وكانت المعاهدة تتلخص فى الشروط الآتية :

١ - عقد هدنة بين المسلمين ومشركى مكة لمدة عشر سنوات .

٢ - أن يرجع المسلمون هذا العام بغير عمرة على أن يأتوا إلى مكة معتمرين فى العام القابل وليس عليهم من السلاح إلا السيوف فى أغمادها .

٣ - من أسلم من أهل مكة لا يقبله المسلمون ، ومن عاد إلى دينه من المسلمين - يعنى من يرتد منهم - يقبله أهل مكة .

٤ - من أراد أن يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد أهل مكة وعقدهم دخل فيه(٢) .

---

(١) ابن هشام : م٢ /١١٤٣ .

(٢) نفسه : م٢ /١١٤٤

تلك هى شروط المعاهدة ، وكان الشرط الثالث منها هو محل الخلاف الذى حدث بين المسلمين ، فكيف يقبل المشركون المرتدين من المسلمين ويؤونهم ، ولا يقبل المسلمون من يدخل فى الإسلام ؟

هذا شرط مجحف فى ظاهره ، ليس فيه إنصاف ولا عدل ، وهو الأمر الذى جعل عمر يقول : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » بل هو الشرط الذى جعل المسلمين يهمسون ويعارضون فى قبول المعاهدة .

والحق الذى لا يمارى فيه اثنان ، أن أى مفاوض ليس له خبرة سياسية كافية ، ومعرفة دقيقة بمرمى هذا الشرط ، وما يكمن وراءه من المصلحة المحققة للمسلمين لابد أن يرفض هذا الشرط لأول وهلة ، ولا يقبله إلا أحد رجلين : إما رجل أبله غبى متواطىء مع المشركين ضد من يفاوض عنهم ، وإما رجل عبقرى فذ أدرك من خلف ذلك النص بتوفيق الله مالم يستطع غيره إدراكه .

وكان الرسول ﷺ بعد توفيق الله له وعصمته إياه هو ذلك الألمعى الذى أدرك مالم يدركه غيره ، واهتدى إلى مالم يهتد إليه أحد لا من المسلمين ولا من المشركين .

وقد وضح ذلك فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، بأن من يرتد من المسلمين فقد أراحنا الله منه ، ولا داعى لأن يبقى بيننا ، فيقف على أخبارنا ، وينقلها إلى أعدائنا ، وأما من أسلم منهم فإن الله سيمنعه ويحميه وإن بقى بينهم .

ومن أجل ظاهر هذا الشرط المرير ، ومن أجل إزالة هذا اللبس من أذهان المسلمين ، ذهب عمر إلى رسول الله ، وسأله كما سأل أبا بكر من قبل لعله يجد تفسيرا للموافقة على هذا الشرط .

قال عمر : يا رسول الله ، أولسنا بالمسلمين ؟

فقال الرسول ﷺ : بلى .

قال عمر : أولست رسول الله ؟

فقال الرسول ﷺ : بلى .

قال عمر : أليسوا بالمشركين ؟

فقال الرسول ﷺ : بلى .

قال عمر : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

فقال الرسول ﷺ : « إنى عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى »(١) .

ولم يسمع عمر جديدا فى تلك الإجابة فقد كانت إجابة أبى بكر وكأنه سمعها من رسول الله ﷺ فسكت عمر على مضض ، ولكنه فهم شيئا جديدا ، وهو أن الرسول ﷺ مأمور بقبول المعاهدة فرضى واستسلم .

لقد كان الرسول حريصا على تنفيذ المعاهدة والالتزام بها لما كان يرى فيها من المصلحة للمسلمين ، وقد نفذ الشرط الثالث بذاته حتى قبل أن يوقع المعاهدة .

فبينما رسول الله ﷺ يفاوض سهيلا فى شروط الصلح حضر ابنه أبو جندل بن سهيل بن عمرو مسلما ، فقام أبوه إليه ، وأخذ يضرب وجهه ، ويجره ليرده إلى المشركين ، وقال : يا محمد ، هذا أول ما أقاضيك عليه .

فقال الرسول : « إنا لم نقض الكتاب بعد » .

فقال سهيل : إذن لا أصالحك على شىء أبداً(٢) .

وينظر الرسول إلى أبى جندل ، ويقول له : « اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم »(٣) .

ويلتزم المسلمون بالمعاهدة على كره منهم لها ، حيث لا يرون فيها إلا الإجحاف بحقوقهم ، ولا يحسون إلا بمرارة الظلم التى يتجرعونها

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٠٣/٣ .
(٢) زاد المعاد لابن القيم : ٣٠٧/٢ .
(٣) ابن هشام : ٢٠٤/٣ .

من شروطها وحتى أبو جندل الذى أضرت به المعاهدة ، وأسلمه المسلمون إلى المشركين يعذبونه ويفتنونه رضى وسلم ، وعاد مع أبيه صابرا محتسبا كما أمره الرسول ﷺ .

وهم الرسول بالعودة إلى المدينة بعد توقيع المعاهدة ، وتثاقل المسلمون ، وأمرهم الرسول بأن يحلقوا رءوسهم وينحروا هديهم ، ويتحللوا من عمرتهم ، ولكنهم لم يفعلوا .

ودخل الرسول ﷺ على أم سلمة - رضى الله عنها - حزينا لما رأى من تثاقل الصحابة ، فسألته أم سلمة عن سبب حزنه فأخبرها فقالت : يا رسول الله ، أوتحب ذلك ؟

قال : نعم .

قالت : اخرج عليهم ، ولا تكلم واحدا منهم كلمة ، وناد حالقك يحلقك ، وانحر هديك ، واركب راحلتك ، وتوجه إلى المدينة .

فخرج رسول الله ، وفعل ذلك ، فأخذ الصحابة يحلق بعضهم بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما(١) .

والحقيقة إننى رغم طول وقوفى أمام هذا الحديث لعلى أجد سببا يبرر تثاقل أصحاب رسول الله عن تنفيذ ما أمروا به ، وهم الذين كانوا يسارعون فى هواه ﷺ ويجتهدون فى تنفيذ أمره لم أعثر على سبب .

ولعل هذا التثاقل كان على أمل أن تتاح لهم فرصة يؤدون فيها نسكهم ، ولا يرجعون بغير عمرة ، ولكن الرسول لما خرج إليهم ، وتحلل من عمرته انقطع ذلك الأمل الذى كان يراودهم ، وتأكدوا من عدم تمكنهم من العمرة هذا العام ، فتحللوا كما تحلل الرسولُ ﷺ .

وفى الحديث أمر آخر ينبغى أن يتنبه له الدعاة إلى الله - عز وجل - فهو أساس عظيم ، وأسلوب قويم من أساليب الدعوة ، وذلكم هو القدوة الحسنة

---

(١) رواه البخارى .

العملية ، فإن الرسول ﷺ لم يكد يفعل ما أمرهم به من قبل فتثاقلوا حتى سارعوا فى الاقتداء به ، وفعلوا كما فعل ، وهو هو نفس ما أمرهم به من قبل .

فالقدوة العملية أبلغ فى النفوس من ألف خطبة ، وأكثر تأثيرا فى القلوب من ألف موعظة .

وانصرف الرسول ﷺ يحف به أصحابه كما تحف الكواكب بالبدر رغم ما فى نفوسهم من شعور بعدم الرضا ، ولكنهم لا يملكون إلا التسليم ، وتوجهوا إلى المدينة ، ولعلهم كانوا يفكرون كيف سيجيبون إخوانهم الذين لم يخرجوا معهم إذا سألوهم عن عمرتهم .

ولكن الوحى لم يدع هذه النفوس المؤمنة فى حيرتها ، ولم يتركها تفكر فى كيفية الإجابة عما يوجه إليها من الأسئلة ، فكفاهم الإجابة ، ونزل على رسول الله قوله – تعالى – : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾[1] .

وعندئذ نادى رسول الله عمر بن الخطاب ، وتلاها عليه ، فقال عمر : « أوفتح هو يا رسول الله ؟ » .

قال : نعم .

وتأكد المسلمون بعد شك وتردد أن المعاهدة فتح مبين ونصر عزيز فهدأت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وأحسوا بنشوة النصر تسرى فى أجسامهم .

واستقر المسلمون فى المدينة بعد عودتهم من الحديبية مطمئنى النفوس لما أخبرهم الله به من أن فى الصلح فتحا مبينا ، ولكن نفوسهم لم تزل قلقة بسبب حرمانهم من أداء العمرة التى لم يصد عنها أحد من قبل .

لم يزل الحرم مثابة للناس وأمنا منذ رفع قواعده إبراهيم بمعاونة ولده إسماعيل – عليهما السلام – لم يصد عنه أحد ، ولم يحل أحد بينه وبين قاصديه ، وكان

---

(١) سورة الفتح : الآيات ١ – ٣ .

الناس يلجئون إليه ليجدوا فى رحابه امن أنفسهم وطمأنينة قلوبهم ، فما بال المسلمين يصدون عنه ، ويحرمون من الطواف حوله ؟

وبينما المسلمون مستغرقون فى هذا التفكير إذ بهم يفاجأون بأمر يزيد من قلق نفوسهم ، وحيرة قلوبهم ، إنهم لا يشكون فى أن الصلح الذى تم بينهم وبين أهل مكة فتح مبين ، وخاصة وأن الله - عز وجل - هو الذى أخبرهم بذلك ، ولكن متى يرون هذا الفتح ويلمسون نتائجه ؟

هذا أبو بصير - عتبة بن أسيد - يجيء من مكة فارا بدينه ، ويلقى بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ معلنا إسلامه ، طالبا أن يلجأ إلى المدينة ليحميه المسلمون ، ولكن كيف يتم ذلك والمعاهدة تحول بين المسلمين وبين حماية من يأتيهم مسلما من أهل مكة ؟

إن أبا بصير لا يستطيع أن يأوى إلى المدينة ، والرسول ﷺ لا يستطيع إيواءه لأن المعاهدة لا تسمح بذلك ، فلابد لأبى بصير من الخروج من المدينة ، وليبحث له عن مكان آخر ، والمسلمون يرون أخاهم فى حاجة إلى من ينصره ويؤويه - وهم قادرون على ذلك - ولكن شروط الصلح لا تمكنهم منه ، وينظر الرسول إلى أبى بصير ويقول : « يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك » .

قال أبو بصير : يا رسول الله ، أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟

ولم يزد الرسول ﷺ على تكرير مقالته لأبى بصير[1] .

رجع أبو بصير مع رسول قريش الذى بعثته ليسترد الرجل من المسلمين وفاء بشروط الصلح ، ووفى المسلمون ولم يغدروا ، وأصر أبو بصير على أمر بيته ، وانطلق مع العامرى متجهين إلى مكة ، وعند ذى الحليفة انتهز أبو بصير غفلة من العامرى وقتله ، وعاد إلى المدينة ، ودخل على رسول الله ﷺ وقال :

---

(١) ابن هشام : ٣/٢٠٧ .

يا رسول الله وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، لقد رددتنى مع القوم ، ولكنى امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى .

ونظر الرسول مرة أخرى إلى أبى بصير ، وقد رأى فيه شجاعة المؤمن وصدق العزيمة والتصميم على المضى فى الطريق الذى اختاره لنفسه ، فقال : « ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد »(١) .

سمع أبو بصير هذه الكلمة من رسول الله ﷺ فزادته حماسا على حماس ، وزودته بقوة تضعف أمامها كل القوى ، وكأنه فهم أن الرسول يشير عليه بالهرب قبل أن ترسل مكة فى طلبه ، ولا مناص إذن من تسليمه ، وليس له هذه المرة عند قريش إن تمكنوا منه إلا القتل قصاصا بصاحبهم العامرى المقتول .

وانطلق أبو بصير إلى ساحل البحر ، و نزل بالعيص على طريق القوافل الذاهبة إلى الشام ، واتخذ لنفسه قاعدة ينقض منها على قوافل قريش .

وبلغ المسلمين المستضعفين فى مكة ما فعل أبو بصير ، فوجدوا أن فى الانضمام إليه فرصة ينبغى ألا تفلت من أيديهم ، فأخذوا يتسللون من مكة مستخفين قاصدين العيص لينضموا إلى أبى بصير ، ويكثروا بذلك جماعة المسلمين هناك حتى يفزعوا بذلك قريشا ، ويلقوا الرعب فى قلوب القوافل ، وقد بلغ عدد المسلمين المتجمعين فى العيص مع أبى بصير سبعين رجلا(٢) .

واستنفر أبو بصير من انضم إليه من المسلمين ليتصدوا لقوافل قريش ووقفوا لهم بالمرصاد ، يقتلون من يظفرون به منهم ، ولا تمر بهم عير لقريش إلا اقتطعوها .

وبلغت تلك الأنباء المسلمين فى المدينة ففرحوا بها فرحا شديدا أزال ما كان فى نفوسهم من القلق على إخوانهم المسلمين ، وطمأن قلوبهم من الحيرة التى كانوا يعانون منها ، ولمسوا أول ثمرات المعاهدة من الشرط الذى كان قد

---

(١) البخارى فى كتاب الشروط .
(٢) ابن هشام : ٢٠٨/٣ .

أزعجهم ، وظنوا أنه إجحاف بهم وتعسف غير مناسب لأوضاعهم .

وأما قريش فقد انزعجت لتلك الأنباء بقدر فرح المسلمين بها بل أشد وطال تفكير الزعماء منهم لعلهم يهتدون إلى حل لتلك المشكلة التى حسبوها فوزا على المسلمين ، وأصر مفاوضهم على تنفيذها حتى قبل توقيع الاتفاقية ، وأدركت قريش أن الوضع يهدد مصالحهم الاقتصادية ، وأن قوافلهم أصبحت عاجزة تماما عن اتخاذ طريقها إلى الشام ، ولا شك أن الأمر لو استمر على ذلك لكانت مكة مهددة بالجوع والحرمان مما يشكل هزيمة منكرة أمام سكان الجزيرة الذين يترقبون نتيجة المعاهدة لينضموا إلى المنتصرين .

وكانت المعاهدة قد منحت المسلمين فرصة الالتقاء بالناس وشرح وجهة نظرهم لهم ، وعرض الدين الجديد عليهم بعد أن حرموا من ذلك عشرين عاما ، وتفتحت أعين الناس وقلوبهم على الحق الذى حيل بينهم وبينه بقوة السيف الغاشمة ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا .

أحست قريش بالخطر الداهم يحيق بها ، تحمله إليها بنود تلك المعاهدة التى فرحت بها ، وحسبتها انتصارا سياسيا على المسلمين ، ووجدت أن أسوأ هذه الشروط بالنسبة لها هو الشرط الثالث الذى أصرت على التمسك به فى الوقت الذى شعر المسلمون بأنه ظلم صارخ نزل بهم .

إن المعاهدة مكنت أبا بصير بأن يتخذ لنفسه ولمن انضم إليه من المستضعفين مواقف تمكنه من تحقيق إرادته والدفاع عن عقيدته دون أية مسئولية على المسلمين ، وبالتالى دون أن تتمكن قريش من دفعه عما يريد ، ولو أن المعاهدة لم تتضمن هذا الشرط تمكن أهل مكة من منع أبى بصير ولو عن طريق المسلمين الملتزمين بشروط الصلح .

إذن ليس أمام المكيين إلا خيار واحد هو التنازل عن ذلك الشرط حتى يستطيع المسلمون ضم هؤلاء الثائرين إليهم ، وحينئذ يصبحون ملتزمين بما بقى من شروط الصلح .

وقد فعلت مكة ذلك ، وكتبت إلى رسول الله ﷺ تناشده الله ، وتسأله

بالرحم أن يؤوى هؤلاء الفارين ، وتعلن أنها لا حاجة لها فيهم ، وترجو أن يقبل كل من جاءه مسلما من قريش .

وهكذا تنازلت قريش عن أهم شرط من شروط الصلح فى نظرهم ولمس المسلمون أول نتائج الفتح المبين الذى حققته المعاهدة المباركة ، وعاد المسلمون الثائرون إلى المدينة المنورة على أثر كتاب كتبه رسول الله ﷺ إلى أبى بصير ، ولكن أبا بصير لم يمتع بالحياة فى المدينة فى جوار رسول الله ﷺ ، حيث وافته منيته فى اليوم الذى وصل فيه خطاب رسول الله إلى العيص ، وقام أصحابه بدفنه هناك ، وتأمر على القوم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، وعاد بهم إلى مقر الدولة وعاصمتها .

وهناك التزم العائدون بالمعاهدة ، وسرى عليهم ما يسرى على إخوانهم ، وظلوا ملتزمين بها ، محافظين على شروطها حتى نقضتها قريش بظلمها واعتدائها .

سفراء رسول الله إلى الحكام :

كانت السفارة فى الجاهلية محصورة فيما يقع بين القبائل العربية ، ولم يكن لأهل الجزيرة سفراء يبلغون عن أهلها ما يشاءون إلى الدول المجاورة أو الدول الخارجية ، لأن الجزيرة العربية لم يكن بها حكومة نظامية تتصل بالدول ، ويمثلها لديها سفراء ، وإنما كانت سفارتهم عن طريق التجارة والتجار ، وما حدث من أنواع السفارة على مستوى الدول كان نادرا لا يعبأ به ، وذلك مثل سفارة عمرو بن العاص إلى النجاشى بخصوص المهاجرين .

فلما جاء الإسلام ، وأمن الناس بمعاهدة الحديبية ، واتصل بعضهم ببعض ، ولم يعد هناك ما يخيف المسلمين من مباغتة قريش لهم ومهاجمتهم لديارهم ، عندئذ اتخذ الرسول ﷺ لنفسه سفراء يبلغون عنه الملوك والرؤساء فى خارج الجزيرة العربية . كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء والحكام كتبا ، وبعث بها مع هؤلاء السفراء يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ويحثهم على الدخول فيه ، ويحملهم مسئولية التخلف عن الاستجابة لدعوته .

وكان الخطر كله بالنسبة للسفراء يكمن فى ثنايا تلك الكتب التى تنطوى

على التهديد والوعيد الشديد للملوك والرؤساء إذا لم يستجيبوا للدعوة الموجهة إليهم ، وكان هؤلاء وأولئك معروفين بالظلم والبغى لا يمنعهم من قتل الرسل الذين يحملون هذا التهديد إليهم مانع .

كانت سفارة هؤلاء الرسل مهمة شاقة ، وكانوا يقدرونها حق تقديرها ولم يغب عنهم شيء من عواقبها ، إنهم كانوا يحملون كتب رسول الله فى أيمانهم ويحملون أرواحهم إلى جوارها على أكفهم ، كان الاستخفاف والتهكم ، وكان الاحتقار والازدراء أقل ما يتوقعه هؤلاء الرسل من أولئك البغاة الظالمين ، بل ربما كان القتل والسجن مما خطر ببالهم وهم يتوجهون لأداء مهمتهم ، وذلك ما حدث فعلا لسفير رسول الله - شجاع بن وهب - إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ملك الغساسنة ، وعامل قيصر على دولتهم الواقعة على حدود الشام ، حيث قتل الحارث شجاعا ، ولم يراع سفارته ، ولم يحترم رسالته .

ومع كل هذه التوقعات ، ومع كل ما كانت تحمله تلك السفارة من المخاطر ، لم يعتذر أحد ممن كلفوا بحمل تلك الكتب ، بل لم يتلكأ أحد منهم فى القيام بما كلف به .

كان هؤلاء الرسل سفراء بين الدولة الإسلامية وبين غيرها من الدول التى وجهوا إليها ، وكانت مهمتهم محصورة فى تبليغ تلك الرسائل إلى الملوك والحكام الذين أمروا بالتوجه إليهم ، والاستماع إلى إجابتهم أو حملها فى رسائل يكتبها الملوك والرؤساء إلى رسول الله ﷺ .

وكانت تلك السفارة هى أول سفارة تخرج من الجزيرة العربية فى مثل تلك المهمة الخطيرة التى كلفت بها ، حيث لم يتعود العرب الدخول على الملوك والمثول بين أيديهم ، وهم وإن كانوا يمرون ببلاد الشام مقر قيصر الروم ، وأحيانا ببلاد الفرس مقر كسرى فارس ، إلا أنهم لم يكن لهم صلة بتلك القصور ، ولم يكن هناك ما يضطرهم للدخول على هؤلاء الملوك أو الوقوف ببابهم ، فقد كانوا يذهبون إلى هذه البلاد تجارا يقصدون الأسواق ليبيعوا تجارتهم ثم يعودوا إلى بلادهم .

وللدخول على الملوك كما هو معلوم نظام خاص ، وعلى من يريد الدخول عليهم أن يتعلمه حتى لا يقع فى محظور ، ويتعرض لنقمتهم وسخطهم ، ولكن ذلك كله لم يمنع الرسل من الذهاب إليهم ، والدخول عليهم ، وتبليغهم الرسائل التى حملوها معهم .

كان المسلمون يعتقدون أن غطرسة هؤلاء الطغاة وظلمهم ناشىء عن بعدهم عن الإسلام الذى علم الحكام كيف يسوسون رعيتهم بالعدل والرحمة ، وكان هذا الاعتقاد من الدوافع التى جعلت الرسل يستهينون بظلم الطغاة وعتوهم ، ويستخفون بما أعدوا لأعدائهم من النكال والموت بل زادهم ذلك رغبة فى أن يبلغوهم دعوة الله لعل فيها ما يردعهم عن هذا الظلم ، ويبعدهم عن هذا الطغيان .

واختار رسول الله ﷺ من أصحابه نفراً لهم هيئة وهيبة وعليهم جلال ووقار ، وفيهم جرأة وشجاعة ، وذلك لأنهم رسله إلى ملوك الأرض فإذا لم يكونوا كذلك لم تكن لسفارتهم عند الملوك مهابتها ، فإن الملوك لا يرون إلا الظاهر ، ولا يعرفون إلا ما يرون ، كما أن هؤلاء الرسل سيبلغون عن رسول الله ، ويحملون دعوته ، فإذا لم يكونوا على تلك الحال كان الالتفات إليهم قليلا ، والاستماع لهم نادرا ، وعندئذ تضيع الفائدة ، ولا يتحقق المطلوب .

وفى المحرم من السنة السابعة للهجرة بعث ستة نفر فى يوم واحد إلى الجهات الآتية :

١ - عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة .

٢ - دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم .

٣ - عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس .

٤ - حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر .

٥ - شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر ملك الغساسنة .

٦- سليط بن عمرو إلى هوذة بن على حاكم اليمام[١] .

ولما علم ﷺ بأن الملوك لا يقبلون الكتب إلا إذا كانت مختومة ، اتخذ لنفسه خاتما يختم به الكتب ، ونقش عليه (محمد رسول الله) .

وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه ، وذلك بعد عودته من عمرته التى صد عنها يوم الحديبية فقال : « أيها الناس ، إن الله قد بعثنى رحمة وكافة ، فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » .

فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟

قال : « دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل .

فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التى بعث إليها »[٢] .

لم يمتنع هؤلاء الرسل عن القيام بما كلفوا به رغم جسامة الأمر ، وعظم المسئولية ، ولم يعتذر أحد منهم ليتنصل من تحمل تلك التبعة التى لا يعرف مصيرها إلا الله - سبحانه وتعالى - ورغم ما كان يتوقع من نتائج غير محمودة ، وما كان ينتظر من عواقب غير مأمونة إلا أن هؤلاء الرسل صدعوا بأمر القيادة والتزموا بتعليماتها ، وهم فخورون بقيامهم بمهمتهم ، راضون كل الرضا بما تتمخض عنه الأيام من الحوادث مادام ذلك فى سبيل الله .

جـ - الالتزام فى التشريع :

الشريعة ما شرع الله لعباده من السنن والأحكام سواء كانت تلك الأحكام فى التشريع العبادى أم الاجتماعى أم الاقتصادى أم الأخلاقى ، والالتزام بهذه التشريعات أمر حتمى يفرضه الإسلام على أتباعه ، ورفض شىء من التشريع

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٦٠ - ٦٢) .
(٢) ابن هشام : (٤/ ١٨٧) .

خروج على الإسلام ، وتكذيب لأمر قد علم بالضرورة يؤدى بفاعله إلى الكفر والعياذ بالله .

والغريب المدهش أن أكثر التشريعات التى جاء بها الإسلام مخالفة لما ألفه العرب ، وتعودوه وشبوا عليه ، ولكنهم مع ذلك لم يقدموا هواهم ولم يرفضوا شيئا مما خالف مألوفهم ، بل سمعوا وأطاعوا ، وأخذوا أنفسهم بكل ما ألزمهم به الشرع ، وروضوها على التنفيذ من غير تردد ولا سؤال .

إن الإسلام هو النظام الوحيد الذى استطاع أن يتغلل فى أعماق النفس الإنسانية ، ويحول الناس عن كل ما أشربته قلوبهم إلى نظم وآداب وأخلاق وشرائع لم يعرفوها من قبل .

ولم يكن هذا التحول نتيجة لضغط خارجى ، أو إرهاب من السلطة الحاكمة ، ولكنه كان تجاوبا مع ما جاء به الإسلام من المبادىء التى لا تتنافر مع الفطرة السوية ، وتلبية لرغبة داخلية يحس بها كل إنسان فى أعماق نفسه وإن كان لا يعرف كيف يعبر عنها .

إن الإنسان مهما انحرف عن الجادة تظل مشاعر الخير مستترة فى حنايا قلبه ، ومهما طال عليه الزمن فإن تلك المشاعر ستبقى تتفاعل حتى تحين لها فرصة الظهور ، وعندئذ تبرز معبرة عن الجانب الخير فى جبلة الإنسان ، و الإسلام بما فيه من طاقات روحية هائلة وقدرات تربوية عظيمة استطاع أن يحرك تلك المشاعر الطيبة فى الإنسان الذى ألهته الحياة الصاخبة من حوله ، وصرّفته الأهواء والشهوات عن الجادة التى يبحث عنها بين هذا الركام و لكنه لم يوفق إليها .

لم يخلق الإسلام العرب خلقا آخر غير الذى كانوا عليه ، ولكنه أخذ بأيديهم ، وأنار بصائرهم ، وأيقظ مشاعر الخير فى قلوبهم ، فصاروا بذلك نوعا آخر غير ما ألفه الناس وعرفوه .

إن تحويل الناس عن عادات وتقاليد أفنوا فيها أعمارهم ، وأصبحت جزءا لا يمكن الانصراف عنه فى تقديرهم يعد فى حد ذاته قوة خارقة لا يتصورها الإنسان إلا فى عالم الخوارق والمعجزات .

ولقد استطاع الإسلام أن يحول العرب مع ما فيهم من بداوة وتعصب إلى أناس أقاموا دولة ، وأسسوا حضارة ، وحملوا مشاعل الهداية والخير إلى أصقاع الدنيا المترامية النائية .

وإن الإنسان ليعجب أشد العجب وهو يرى سكان الجزيرة العربية التى لم يحفل بها التاريخ ، ولم يعبأ بها المؤرخون هم الذين ينيرون ما أظلم من حياة الناس ، ويعيدون للإنسانية تراثها المفقود ، ويردونها إلى نهجها القويم .

ولا يتمالك المرء وهو يلمس تلك الحقائق إلا أن يتساءل ، كيف صاغ الإسلام هذه النفوس حتى غدت لا تتحرك إلا له ، ولا تؤمن إلا به ، ولا تبذل أموالها وأنفسها إلا فى سبيله ؟؟

وليس هذا مجرد خيال أو كلام لا يمت إلى الواقع بصلة ، ولكنه الحقيقة التى لا يستطيع إنسان أن يجحدها ، والسر فى هذا التحول الخطير فى حياة الناس الذين عرفوا الإسلام ودخلوا فيه ، والحقيقة التى أحدثت فى نفوسهم هذا التغيير الجذرى هى قدرة الإسلام العجيبة على التأثير فى كل من يتصل به ، وقوته الروحية التى تفرض سلطانها وتسيطر على القلوب والأرواح حتى لا يستطيع الإنسان معها أن يتصرف إلا طوع إرادتها وفى حدود هيمنتها وسلطتها .

ولهذا لم تستطع النفوس المؤمنة أن ترفض شيئا فرضه الإسلام مهما خالف مألوفها وتعارض مع تقاليدها وعاداتها .

لقد كانت الخمر أشهى ما تطلبه نفس العربى ، وألذ ما يستمتع به ، لا يخلو منها بيت ، ولا يستغنى عنها فى مجلس ، هاموا بها هياما جاوز الحد ، فتغنى بها الشعراء ، وتفنن فى تقديمها الندماء ، وإذا رأيت القوم وقد التفوا حول الأقداح ، وراح الشعراء يتبارون فى وصف الراح ، وتأملت عندما يحتسونها نشوة النفوس وكثرة الأفراح ، تأكدت أن القوم لن يتخلوا عنها حتى تتخلى عن الأبدان الأرواح .

تلك هى الحال التى كان العربى فى الجزيرة يعيشها ، ولعل ولعوع العرب بالخمر إلى هذا الحد هو السر فى تحريمها على التدريج ، وتلك لفتة بارعة فى التشريع

فإن النفوس إنما تروض على ترك ما ألفت شيئا فشيئا حتى يكون ذلك أثبت لها إذا تركت فلا تعود إليه أبداً .

وكانت أول آية فى القرآن الكريم ، تعرضت لذكر الخمر هى آية النحل التى يقول فيها – تبارك وتعالى – : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾(١) .

فذكر السَّكَرِ وهو الخمر فى مقابلة الرزق الحسن فيه تعريض بالخمر وبيان بأنها ليست من الرزق الحسن الذى ينبغى للمؤمن أن يتحراه .

ولقد حركت تلك الآية فى نفس عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – عوامل كامنة فابتهل إلى الله أن يبين فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت آية البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾(٢) .

فتطلعت نفس عمر إلى زيادة بيان وتوضيح ، فدعا ربه ، اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء ، فنزلت التى فى النساء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾(٣) .

وازداد شوق عمر إلى بيان قاطع واضح لا يحتمل التأويل ، ولا يعطى للنفس فرصة الاختيار ، فألح على الله فى طلب البيان ، فكانت الآية الفاصلة الحاسمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ﴾(٤) ؟

---

(١) سورة النحل : الآية ٦٧ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٩ .
(٣) سورة النساء : الآية ٤٣ .
(٤) سورة المائدة : الآية ٩٠ ، ٩١ .

obeikandl.com

فلم يكد عمر - رضى الله عنه - يسمع تلك الآية حين تليت عليه حتى قال : انتهينا انتهينا[1] .

لم يكن عمر بعيدا عن الخمر وهو يطلب من الله أن يبين فيها بيان شفاء ولكنه كان غارقا فيها إلى أذنيه كما حدث هو عن نفسه ، كنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها[2] . ولكنه رأى فيها إهدارًا لكرامة شاربها ، وامتهانا لنخوته وشهامته ، فعزف عنها ، وألح على الله فى أن يبين فيها بيانا يشفى صدره ، ويطمئن قلبه ، فكان التحريم القاطع فى نهاية الأمر .

ومع ولوع المسلمين بالخمر ، وتكالبهم على شربها ، واتخاذهم الرخصة فيما نزل من الآيات المتكررة قبل النهى عنها ، مع كل ذلك لم تكد آية التحريم تنزل على رسول الله ﷺ حتى أذعنت النفوس ، وخضعت القلوب مذعنة لأمر الله - تعالى - روى البخارى - رحمه الله - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : « كنت أسقى أبا عبيدة وأبا طلحة وأبيَّ بن كعب من فضيخ زهو وتمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت .

فقال أبو طلحة : قم ياأنس فهرقها ، فهرقتها » .

وروى الإمام أحمد فى المسند عن أنس قال : « كنت أسقى أبا عبيدة وأبيَّ بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرا من أصحابه عند أبى طلحة ، وأنا أسقيهم حتى كاد الشراب أن يأخذ فيهم ، فأتى آت من المسلمين فقال : أوما شعرتم بأن الخمر قد حرمت ؟ فما قالوا حتى ننظر ونسأل .

فقالوا : يا أنس ، الق ما بقى فى إنائك ، قال : فوالله ما عادوا فيها ، وما هى إلا التمر والبسر ، وهى خمرهم يومئذ » .

هكذا من غير مناقشة ولا مجادلة ، ومن غير أن يسألوا أو يتحققوا يقول أبو طلحة لأنس : قم يا أنس فهرقها .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٣/٧ .

(٢) ابن هشام : ٣٥٧/١ .

لو كان النهى عن غير الخمر لاحتاج إلى شيء من التردد والتثبت ، فكيف والنهى عن الخمر التى أشربت حبها القلوب ، ومالت إليها النفوس ، وأصبحت لازمة من لوازم المجالس ، وأنسا يطرب إليه كل جالس ، ومع ذلك يتلقى المؤمنون الأمر بالكف عنها وتركها فلا يترددون ولا يتثبتون بل ينفضون عنها ، ويأمرون الساق أن يريقها ، وينصرفون إلى حال سبيلهم ، وكأن لم يكن بينهم شراب ، وكأنهم لم يعرفوا الخمر من قبل .

إن نزول الآيات التى تناولت الخمر بهذه الصورة التربوية الفذة قد مهد السبيل ، وهيأ النفوس لتلقى الأمر بالتحريم من غير تردد ولا توقف فى التنفيذ ، إن الآيات قد سيقت فى نسق موح بتلك النتيجة الحتمية ، ألست ترى الآية الأولى تلمح بأن الخمر شيء آخر غير الرزق الحسن الطيب الذى أباحه الله لعباده ، وتليها الآية الثانية فتصرح بما فيها من الإثم الذى يفوق المنافع ، ثم تأتى الثالثة فتحرمها فى أوقات الصلاة ، فماذا بقى بعد ذلك ؟؟

إن أوقات الصلاة متلاحقة فى اليوم والليلة ، يعقب بعضها بعضا فمتى إذن يشربون الخمر ، ويأتون إلى الصلاة وهم يعلمون ما يقولون ؟

فليمسكوا عن الشراب حتى تنتهى أوقات الصلاة ، أو ليقللوا منها بقدر ما يستطيعون حتى لا تأخذ فيهم ، وفى كلا الأمرين ترويض للنفس على تركها ، وتهيئة لها على تلقى الأمر بتحريمها ، ولهذا لم يسألوا عنها ، ولم يفكروا كيف يتركونها .

يقول سماحة العلامة – أبو الحسن الندوى – : « نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاة المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر ، فسالت فى سكك المدينة »(١) .

ويقول سيد قطب – رحمه الله – : « ولما نزلت آية التحريم هذه فى سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد فى نوادى المدينة : ألا أيها القوم ، إن الخمر قد حرمت .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ط ٤ ص ٨٨ .

فمن كان فى يده كأس حطمها ، ومن كان فى فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر ، وكسرت قنانيه ، وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر »[1] .

ونحن لا نستطيع ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن المجتمع الإسلامى كله بغير استثناء كان كذلك ، ولم يكن هناك مخالفة قط ، ولم يقع انحراف من بعض الأفراد ، لأن ذلك يخالف طبيعة البشر التى فطرهم الله عليها ، بل كانت مخالفات ، وكان هناك انحراف ، ولكن ذلك كان فى قلة نادرة لا تحسب فى إطار المجتمع الكبير شيئا مذكورا .

ولعل ما وقع من المخالفات فى الخمر وفى غيرها مما حرمه الشرع كان لإبراز حقيقتين لابد أن يعلمهما الناس عن هذا المجتمع الفريد الذى رباه الإسلام : أولاهما أن يعلم الناس أن المجتمع الذى التزم بهذه التشريعات وأخذ بها نفسه مجتمع بشرى ، وليس شيئا آخر غير بنى الإنسان حتى لا يعتذر أحد عن الأخذ بها بحجة أنها غير قابلة للتطبيق فالمجتمع الذى التزم بها مجتمع مثل مجتمعنا وفيه كل الخصائص والصفات التى فى كل المجتمعات البشرية .

والثانية ليتعلم الناس كيف يقيمون الحدود ، كيف يسوون فى إقامتها بين الغنى والفقير والقوى والضعيف .

فلو لم تقع هذه المخالفات لظن الناس أن المجتمع ليس من جنس البشر ، ولما عرفوا كيف يقيمون الحدود ويسوون فيها بين كافة الطبقات .

وفى التنظيم الاجتماعى يحرم الإسلام أنواعا من الزواج كان العرب قد ألفوها ، وتعايشوا بها ، والتشريع الإسلامى لم يعبأ كثيرا بإلف الناس وعاداتهم بقدر ما كان يهتم بتحقيق الصالح العام لأفراد هذا المجتمع ، والمصلحة العامة فى نظر الإسلام هى الغاية التى من أجلها وضع نظامه الاجتماعى ، وهى التى بها يصان المجتمع من التردى والانحلال والتفسخ والضلال .

والتشريع الإسلامى وهو يتناول الأوضاع الاجتماعية يتناولها من خلال

---

(١) فى ظلال القرآن م٢ /٩٧٥ دار الشروق .

الواقع الذى يعيشه أفراد هذا المجتمع أو بالأصح الذى ينبغى أن يعيشه أفراده ، فتجاهل هذا الواقع يجنح بالمجتمع وينحرف به إلى أوضاع شاذة لا تتواءم مع فطرة الناس وميولهم ، وينشأ بسبب ذلك أنواع من الفساد الخلقى الذى يهد كيان المجتمع ، ويقوض أركانه .

والمصلحة العامة فى موضوع الزواج لا تتحقق دائما وباضطراد بالزواج من واحدة ، لأن عدد النساء فى مجتمع ما قد يتضاعف بالنسبة لعدد الرجال ، فإذا تزوج كل رجل بامرأة واحدة وقع الحيف والظلم على بقية النساء بحرمانهن من المعاشرة الطاهرة مع أزواج شرعيين ويكون الظلم الأكبر بتعريضهن للمخادنة تلبية لإلحاح الميل الجنسى الفطرى فى الإنسان .

وكما لا تتحقق المصلحة العامة فى موضوع الزواج بالاكتفاء بواحدة ، كذلك لا تتحقق بترك الأمر فوضى بتزوج الرجل من يشاء بلا حدود ولا قيود ، لأن عدد النساء قد يتساوى مع عدد الرجال أو يزيد فى حدود معقولة وعندئذ لو ترك الأمر فوضى قد يغلب الأغنياء الفقراء ، فيجمعون من النساء ما يقدرون عليه ، ويبقى الفقير لا يجد من يتزوجها ، وحينئذ يتعرض للفتنة ويقع فى المحظور ، كما قد تتضرر الزوجات بعدم القدرة على العدل والإقساط من جانب الزوج .

لهذا وذاك أباح الإسلام التعدد ، وحدَّده بأربع لا يتجاوزهن الرجل مهما كانت الأسباب ، وقيده بالعدل فى النفقة والمعاملة والمعاشرة والمباشرة حتى يضمن للمرأة حياة عزيزة كريمة ، فإذا انعدمت القدرة على العدل فلا يجوز الزواج بأكثر من واحدة .

قال – تعالى – : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾(١) .

فمجرد الخوف من عدم العدل لا يبيح التعدد ، ويلزم صاحبه الاكتفاء بواحدة حتى لا يقع فى المحظور .

---

(١) سورة النساء : الآية ٣ .

والآية الكريمة تشرع للمجتمع توازنا معقولا حتى لا يقع الحيف على أحد الجنسين ، وتقى أفراده من الاختلال والاضطراب .

لقد كانت المرأة فى الجاهلية – عند العرب وغيرهم على حد سواء – سلعة يتخذها بعض الناس للخدمة والامتهان ، ويتخذها بعضهم لقضاء الوطر والاستمتاع ، وكان كل مجتمع يتعامل معها حسب حاجاته إليها ، فمنهم من يستكثر مهما بلغ العدد ، ومنهم من يقلل ، والميزان فى كل الأحوال رغبة الرجل وتحقيق مصلحته فلما جاء الإسلام أقام نظام الأسرة على أسس قويمة وقواعد متينة فجعل العدل أساس المعاملة ، وجعل المحبة والمودة قاعدتين للعلاقات الزوجية ، وجعل قدر الطاقة حد النفقة ، وجعل المعروف والإحسان وسيلة المعاشرة .

وانطلاقا من هذه القواعد وتلك الأسس حرم أنواعا من الزواج لا تقوم على أساس من المصلحة المتبادلة بين الزوجين .

فحرم الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته لشخص على أن يزوجه ذلك الشخص ابنته وليس بينهما صداق ، أى مبادلة بغير عوض .

وفى هذا النوع من الزواج ما فيه من جعل المرأة سلعة يستمتع بها الرجل وقت حاجته دون أن يكون لها أية حقوق قبله ، وفيها من المضار ما فيها بحيث إذا أساء أحد الزوجين إلى زوجه فى المعاملة حرص الآخر على أن يعامل زوجه بمثل ما عوملت به ابنته وإن لم تجن ذنبا تستحق به تلك المعاملة السيئة .

وعلى هذا تكون تلك الطريقة مضرة للزوجة ، مضيعة لحقوقها ، لهذا حرم الإسلام الشغار ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – : « أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار »[1] .

وكذلك حرم الإسلام زواج المتعة وهو الزواج إلى أجل معلوم بحيث إذا انتهى الأجل وقعت الفرقة بين الزوجة والزوج دون أن يكون لها قبله أية حقوق .

---

(١) رواه البخارى .

وهذا النوع من الزواج تكون فيه المرأة آلة للاستمتاع ليس إلا ، وفيه امتهان لها وتحقير لمكانتها ، والإسلام لا يرضى للمرأة هذا الوضع السيء المشين ، فإنما هي نصف المجتمع ، وهي المدرسة التي تنجب الأبطال وتصنع الرجال ، فكيف تكون كذلك وهي سلعة يقضي الرجل معها شهوته ثم ينصرف عنها بغير التزام ، وأنى يتأتى منها ذلك وهي مهددة بالفرقة بعد حين غير مستقرة في بيت الزوجية ، بل هي متعة متنقلة يفارقها هذا ليقتنصها ذاك ، ولو لم يكن في هذا النوع من الزواج إلا تضييع الأولاد لكفى به بلاء يستوجب التحريم .

قال علي لابن عباس — رضي الله عنه — : « إن النبي ﷺ نهى عن المتعة ، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر »[١] .

وقد كان هذان النوعان من الزواج شائعين عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حتى حرمهما الرسول ﷺ ضمن التنظيمات الاجتماعية التي وضعها ، فصدع المسلمون بالأمر رغم تعلقهم بهما ، ولم يتخلف منهم أحد إلا من لم يبلغه النهي ، فلما بلغه كف وأطاع .

وكان رجال في الجاهلية تحت كل واحد منهم عدد غير معقول من النساء ودخلوا في الإسلام بهذا العدد من الزوجات ، وكان للإسلام منهم موقف حاسم .

أحدهم : غيلان بن سلمة الثقفي وكان تحته عشر نسوة[٢] .

والثاني : عمير الأسدي وكان عنده ثماني نسوة[٣] .

والثالث : نوفل بن معاوية الديلمي وكان لديه خمس نسوة[٤] .

فما موقف الإسلام من ذلك ؟

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه أحمد والترمذي .
(٣) رواه أبو داود .
(٤) رواه الشافعي في المسند .

لقد أمرهم رسول الله ﷺ بأن يمسك كل منهم أربعا وأن يفارق ما زاد عن ذلك .

كان هذا هو واقع الناس فى المجتمع الجاهلى ، وكان هذا هو موقف الإسلام من هذه الفوضى الاجتماعية .

ونحن نرى من ذلك أن الإسلام قد أنصف المرأة ، وأنقذها من هذا الوضع المهين ، وساعدها لتأخذ وضعها الطبيعى فى المجتمع الذى تعيش فيه ، فلو أن الإسلام لم يتدخل وترك الأمر على ما كان عليه حين كان الرجل يتزوج عشر نسوة أو أكثر أو أقل فماذا كان يكون وضع المرأة حينئذ ؟

إن الإسلام حين يتدخل على هذا النحو يعالج المشكلة علاجا موضوعيا غير قابل للتعديل والتبديل كلما مر عليه حين من الدهر ، ويكون قد وضع للمشكلة حلا ثابتا مناسبا تتحقق به المصلحة العامة لكلا الجنسين الذكر و الأنثى على حد سواء ، وكما بينته من قبل .

يقول المرحوم سيد قطب : « فقد جاء الإسلام إذن ، وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل – بدون حد ولا قيد – فجاء ليقول للرجال : إن هناك حدا لا يتجاوزه المسلم – هو أربع – وإن هناك قيدا – هو إمكان العدل – وإلا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم .

جاء الإسلام لا ليطلق ، ولكن ليحدد ، ولا ليترك الأمر لهوى الرجال ولكن ليقيد التعدد بالعدل ، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة »(١) .

والسؤال الذى يفرض نفسه هو ، كيف واجه المسلمون هذا الموقف ؟ وما موقفهم حين حرمهم الإسلام من الاستمتاع بمن زدن على أربع ؟ وماذا كان جوابهم عندما أمرهم الرسول بإمساك أربع ومفارقة الباقيات ؟؟

لقد واجه المعددون هذا الموقف فى شجاعة ، وجعلوا عواطفهم خلف ظهورهم ، ولم يكن منهم إلا السمع والطاعة ، فأمسك كل منهم أربعا وفارق

---

(١) فى ظلال القرآن : م١ /٥٧٨ ، ٥٧٩ .

الزائدات على ذلك دون أن يتردد أو يعترض .

لا شك أنه موقف يحتاج إلى كثير من التدبر والتفكير ، تبرز فيه العواطف كأشد ما يعرف الإنسان من توقد العواطف وسيطرتها ، لاسيما إذا كانت النسوة مخلصات لزوجهن متحببات إليه ، مطيعات لأمره ، لم ير منهن غدرا ولا خيانة فكيف ؟ ومن منهن يقدر على فراقها بتلك السهولة ؟

ولكن تلك العواطف الملتهبة ، وهذه المحبة المتبادلة لم تكن قط حائلا دون تنفيذ أمر القيادة أو التردد فى قبوله والالتزام به .

وللتشريع الإسلامى مذهب فى الاقتصاد انفرد به ، لم يسبقه إليه تشريع ، ولم يلحقه فيه مذهب ، والمتأمل فى أسس وقواعد الاقتصاد الإسلامى يتأكد من خلال تأمله أنه مذهب فريد ، لا يوصف بالاشتراكية ، لأنه يحافظ على الملكية الفردية ويحترمها ويحرمها على غير مالكها إلا بحق ، ولا يوصف بالرأسمالية ، لأنه يحدد طريقة الكسب ويضع الشروط والمواصفات التى تبيحها .

ليس الاقتصاد الإسلامى اشتراكيا لأنه يحترم رأس المال ويعترف به ، ويعتبر الاستيلاء عليه بغير حق اعتداء محرما ، وليس رأسماليا لأنه يفرض للفقير حقا معلوما فى الأموال ، ويحرم الرشوة ، ويلعن المحتكر ، ويحارب الاستغلال ويعلن الحرب على المرابين .

لقد كانت الأوضاع الاقتصادية فى الجزيرة العربية قائمة على النظام الربوى وكان ذلك ناشئا عن تأثير اليهود فى الجزيرة ، وهم الذين كانوا يملكون رؤوس الأموال الضخمة ، وكانوا يقرضون العرب بفوائد باهظة كما هو معروف عنهم فى جميع العصور والأوطان التى سكنوها ، وقد تأثر العرب بتلك المعاملة التى تدر عليهم أرباحا هائلة دون أن يتعرضوا للمغامرات التجارية التى تتأثر بها رؤوس الأموال كسبا وخسارة .

إنهم حينما يتعاملون بالربا يضمنون لأموالهم مكسبا خالصا لا يعتوره شك ، ولا يكتنفه خوف ، وترتب على التعامل بالربا أنواع من المعاملات التى لا تقل بشاعة عنه كالاحتكار والغش والخداع .

وكان كبار التجار يستغلون رؤوس أموالهم فى إجبار الفقراء المحتاجين على الخضوع لما يحبون ، ويوجهونهم كيفما يشاءون ، ويسخرونهم فى استثمار أموالهم وهم لها ضامنون .

وجاء الإسلام فحرم كل هذه المعاملات الفاسدة ، ووضع قواعد جديدة للاقتصاد الإسلامى ، فأقامه على التعاون والتكافل والتراحم ، وشجب كل معاملة تخالف تلك الأسس ، واعتبرها خروجا على النظام الإسلامى .

وقبل المسلمون هذا النظام الجديد بنفوس راضية ، واستقبلوا هذا التغيير الجذرى فى حياتهم الاقتصادية ببساطة وتسليم مهما أعقبه من خسائر مادية جسيمة نتيجة تحريم التعامل بالربا وهو النظام المتعارف عليه عندهم .

لقد كان التعامل بالربا يدر على المتعاملين به أرباحا طائلة وفيرة من غير جهد مبذول ، وكانوا يتقون به شر الهزات المالية المدمرة التى تترتب أحيانا على الإتجار ككساد الأسواق وهبوط الأسعار وغير ذلك .

ومع ما كان فى التعامل بالربا من ربح فاحش ومضمون ، فإن المؤمنين قد ضحوا بهذا الربح ، وقنعوا بالمكاسب التى تأتيهم عن طرق التجارة الحلال الطيب ، ورضوا بالقليل فبارك الله لهم فيه وأصبح كثيرا ، والتزموا بأمر الله – جل شأنه – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾[1] .

والجانب الأخلاق فى الإسلام له حظ وافر ، فالإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ونبى الإسلام بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، والمؤمن يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، وأقرب المؤمنين مجلسا من رسول الله ﷺ يوم القيامة أحاسنهم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون .

وعلى هذه القواعد انطلق الإسلام يدعم الأسس الأخلاقية بين المسلمين ، ويرتقى بالمجتمع الإسلامى ارتقاء لم يعرف فى مجتمع قبله .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٨ .

روى المؤرخون أن رسول الله ﷺ وهو يعرض الإسلام على قبائل العرب لقى بنى شيبان ، وفيهم مفروق بن عمرو ، فعرض الرسول عليه الإسلام ، فقال مفروق : إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتلا الرسول ﷺ عليه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(١) .

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك(٢) .

لم يكن المجتمع العربى فى الجاهلية قد ألف هذه الفضائل وإن عرفها ، ولم يكن متمسكا بها وإن أدرك فضلها ، ولكن الإسلام قد فرضهاعليهم فرضا ، وألزمهم بالتحلى بها والتخلى عن أضدادها فالتزم ولم يحد ، لقد أمر الإسلام بغض البصر عن النساء الأجنبيات فغضوا أبصارهم فنشأ عن ذلك مجتمع الفضيلة والطهر ، وأمر بالاستئذان عند دخول البيوت وإلقاء السلام على من فيها فوجدت المحبة والمودة والتراحم ، وأمر بالإحسان إلى المسىء فاجتمعت القلوب والتأم الشمل .

لم تكن هذه الأخلاق مبادىء نظرية سطرت ولم تطبق ، ولكنها كانت ككل المبادىء التى جاء بها الإسلام برامج عملية ، ومناهج تربوية التزم بها المسلمون ، وطبقوها على أنفسهم قبل أن يطالبوا بها غيرهم .

وأبو بكر الصديق – رضى الله عنه – الرجل الثانى فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ يأخذ بها نفسه ، ويضرب بذلك المثل الأعلى لمن يريد التأسى ، بل ورسول الله ﷺ يسبق أبا بكر فى ذلك فيكون القدوة العملية للمسلمين جميعا .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ يستعينه فى شىء ، فأعطاه شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك ؟

---

(١) سورة النحل : الآية ٩٠ .

(٢) حياة محمد ط ٩ ص ١٣٦ ، مختصر سيرة الرسول ص ١٥١ .

قال الأعرابى : لا ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه .

فأشار إليهم ﷺ : أن كفوا .

ثم قام فدخل منزله ، ثم أرسل إلى الأعرابى ، فدعاه إلى البيت ، فزاده شيئا فرضى .

فقال ﷺ : إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك وقلت ما قلت ، وفى أنفس المسلمين شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

قال : نعم .

فلما كان الغداة أو العشى جاء .

فقال رسول الله ﷺ : إن صاحبكم هذا كان جائعا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه رضى ، أكذا ؟

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال النبى ﷺ : ألا إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا .

فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها .

فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فجاءت فاستناخت ، فشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وإنى لو تركتكم حين قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار(١) .

وهكذا يضرب الرسول ﷺ لأصحابه مثلا فى التحلى بالمكارم والبعد عن الرذائل ليقتدوا به ، فى هذا الجانب العظيم من جوانب التربية الأخلاقية العالية

---

(١) الوفا بحقوق المصطفى لابن الجوزى ٨٢/٢ ، ٨٣ .

حتى استحق بذلك أن يصفه ربه – جل ثناؤه – بقوله – تعالى – : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(١) .

ثم ماذا عن أبى بكر – رضى الله عنه – ؟

لقد كان يقتدى برسول الله ﷺ فى كل أحواله وأفعاله وخلقه وأعماله ، وأننا لنلمس ذلك بوضوح فى قصة الإفك ، حيث يطعن فى عرضه وشرفه ، وتجرح كرامته فى أعز الناس بعد رسول الله عنده .

ولقد تأكد – رضى الله عنه – أن مسطح بن أثاثة ممن تكلموا بالفاحشة وأشاعوها ، وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته وفقره ، فلما بلغه ما بلغه عنه حلف لا ينفق عليه ، ولا ينفعه بنفع بعد الذى قال عن عائشة ، وأدخله على أبى بكر من الهم بتلك التهمة الخطيرة .

وليس هناك ما يلام عليه أبو بكر فى ذلك ، بل هو أقل ما يتصوره الإنسان ممن يرمى فى عرضه وشرفه ، وإننى أعتقد أن ما أخذ به أبو بكر نفسه من تعاليم الإسلام وآدابه هو الذى عصمه عن قتل مسطح والإيقاع به ، وإلا فإن القتل أقل ما يمكن أن يقابل به رجل خاض هذا الخوض فى مثل البيئة التى يعيش فيها مسطح وأبو بكر .

ومن المعلوم أن العربى كان يدفع عن عرضه لو بذل فى ذلك روحه لأن العرض عندهم شيء ثمين لا يفرط فيه حرمهما كانت ظروفه وحالته ومن أجل هذا كانوا يئدون بناتهم أحياء خشية أن يجلبن لهم العار .

فما فعله أبو بكر – رضى الله عنه – إذن من الحلف على ألا ينفق على مسطح هو شيء لا يخرج عن الخلق والمروءة ، ولكن الإسلام كان ينشد الأفضل والأمثل دائما وهو يربى أتباعه .

نعم ، إن حرمان مسطح من نفقة أبى بكر وقد قال ما قال شيء لا يعاب به أبو بكر ، ولا يتعارض مع الآداب ، ولكن ما ينبغى أن يكون عليه أبو بكر

---

(١) سورة القلم : الآية ٤ .

وأمثاله من مقابلة السيئة بالحسنة ، ومن العفو والصفح هو الذى يستحسن أن يوجه إليه المسلمون .

لهذا لما حلف أبو بكر ألا ينفق على مسطح نزل قوله - تعالى - : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ﴾(١) .

ولم يكد يسمعها أبو بكر - رضى الله عنه - حتى قال : بلى والله ، إنى لأحب أن يغفر الله لى .

وعاد إلى ما كان يفعل من قبل ، وأعاد إلى مسطح نفقته التى كان يبذلها له طمعا فى غفران الله ورحمته .

---

(١) سورة النور : الآية ٢٢ .

obeikandl.com